# من روائع المتنبي في المعارك

**د . أبوبكر العربي المجدوب**

## المقدمة

**الحمد لله**، والصلاة والسلام على نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) أفضل الأنبياء والمرسلين وبعد:

**فالمتنبي** هو الذي يمكن أن نطلق عليه شاعر ( القومية ) لأنه واكب المعارك التي خاضها أعظم وأقوى الفرسان في عصره، وهو سيف الدولة الحمداني منقذ العرب وحاميهم من غطرسة الفرس والروم.

**ولقد** شغل بشعره الأدباء والنقاد فانقسموا بين معجب ومدافع عنه، وبين معارض لشعره ومتحامل عليه، فذاع صيت هذا الشاعر بينهم، حتى أفردت له الصفحات العديدة في الكتب، وانتشر شعره، واحتل المكانة الكبرى بين الشعراء، فبرز المتنبي في شعر الحرب، ووصف الخيل وبز غيره من الشعراء الذين قالوا شعراً في هذا المجال فأبدع المتنبي وصار في هذا الميدان إماماً مشهوداً له بالبراعة، وقد اخترت القصائد الحربية كمجال لبحثي من بين مجموع قصائد المتنبي، باعتبارها أروع القصائد التي صورت المعارك ووصفتها وصفاً رائعاً وباعتبار هذه القصائد هي المجال الذي تقدم فيه المتنبي على شعراء العرب، فصار شعره مجال دراسة وبحث، والحق يقال: إن المتنبي جدير بأن يوجه إليه هذا الاهتمام وأن يدرس شعره.

**هذا** الشعر الذي بناه كمن يبني قصراً بمساحة واسعة وجدران عالية تنافس الدهر فتشدُ قصائده انتباهك وتملك إعجابك.

**أولاً - موضوع القصيدة:**

**القصائد** الحربية هي مجموعة القصائد التي قصدها المتنبي في أمير حلب (سيف الدولة)، سواء أكانت في المدح أم تصوير المعارك التي خاضها الأمير ضد جحافل الروم والفرس، والقبائل المتمردة.

**اكتسبت** هذه القصائد في نصها موضوعين: شعر الحرب وتحرك الجيوش - ووصف المعارك ورحلة الحرب– حيث تتحرك الخيل من أرض المسلمين حتى وصولها إلى أرض الأعداء مثيرة الغبار،ويصفها كيف تجتاز الأنهار، صاعدة القمم، طاوية السهول، ومن أهم روائعه في الحرب والمعارك قوله:

قاد الجياد إلى الطعان ولم يقُد إلا إلـــى العادات والأوطـان
كـل ابن سابقة يغير بحسنه في قلب صاحبه على الأحزان
إن خُلِّيتْ رُبطتْ بآداب الوغى فدعاؤها يغني عن الأرسان[1]

ومن أبرز السمات الظاهرة في القصائد الحربية الإطالة في وصف الخيل، والتغني بها، ومن أهم روائعه في الخيل قوله:

قاد المقانب أقصى شُربها نهلُ على الشكيم وأدنى سيرها سَرَعُ
لا يعتفي بلد مسراه عن بلد كالموت ليس له رِي ولا شبعُ[2]

وفي رائعة أخرى حيث يقول:

رمى الدربَ بالجُرد الجياد إلى العدا وما علموا أن السهام خيولُ
شوائلَ تشـــوالِ العـقـاربِ بالـقنا لها مرح من تحته وصهيلُ[3]

**وفي** وصفه هنا يشبه الرماح على الخيل بأذناب العقارب إذا شالت بها.

**ونجد** الحيوية والحركة في تصوير المعارك التي يخوضها سيف الدولة، واصفاً الكر والفر وركض الخيل،

فيقول في إحدى قصائده:

وخيل براها الركض في بلدة إذا عرست فيها فليس تقيلُ
فلما تجلّى من دلوك وصنجة[4] علتْ كلَّ طود راية ورعيلُ
على طُرُقٍ فيها على الطُّرْقِ رفعة وفي ذكرها عند الأنيس خمولُ[5]

**فالخيول** في هذه المعارك دائمة الركض تثير الغبار، وعدت هذه القصيدة من قبل بعض النقاد أجمل ما قال المتنبي،بل هي أروع قصيدة في الشعر العربي[6].

**وفي** قصائده يؤكد المتنبي تصميم سيف الدولة على مواصلة الجهاد وحماية الثغور من الأعداء، والدفاع عن الأهالي إذ يقول:

تهاب سيوف الهند وهي حدائد فكيف إذا كانت نزارية عربا
هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهم وأنك حزب الله صرتَ حزباً
وأنك رعت الدهر فيها وريبه فإنْ شكَّ فليُحدث بساحتها خطباً
فيوماً بخيل تطرد الروم عنهم ويوماً بجودٍ تطرد الفقر والجدبا[7]

ويشير المتنبي في هذه القصيدة إلى أن سيف الدولة هو حزب الله، وهذا مدح تقليدي، ففي هذه القصيدة كان هدف المتنبي هو نصر العرب فقط، ولا هدف آخر غيره، مصوراً لنا كيف يرد سيف الدولة الأعداء حيناً، وكيف يحارب الفقر حيناً آخر، وكيف تكون القوة مروعّة للدهر[8].

**وفي** رائعة أخرى من روائعه يصور لنا المتنبي كيف بنى سيف الدولة قلعة مرعش، وكيف رسخت القلعة في الأرض، وكيف علت ممثلاً بعلوها عزيمة سيف الدولة ، وكيف أن القلعة عندما تهب الرياح ترتد عنها لمناعتها، وأن الجياد تعلو فوق جبال القلعة وقد امتلأتطرقها بالثلج الذي كأنه قطن ندفه فيها برد الشتاء. قائلاً:

فأضحت كأن السور من فوق بدئه إلى الأرض قد شق الكواكب والتربا
تصُدّ الرياح الهوج عنها مخافة وتفزع فيها الطير أنْ تلقط الحبا
وترْدي الجيادُ الجُرْدُ فوق جبالها وقد ندف الصَّنْبَرُ[9] في طُرْقها العطبا[10].

ونذكر بأن المتنبي لم يخصص قصائده لمدح سيف الدولة فقط،بل خص بها مدح جيش سيف الدولة القوي قائلاً في إحدى قصائده:

وجيش يُثنّي كلَّ طود كأنه خريق رياحٍ واجهت غصناً رطباً
كأن نجوم الليل خافت مغاره فدمت عليها من عجاجته حجباً [11]

**يصف** المتنبي الجيش بأنه إذا وقف بجانب جبل فإنه يصبح جبلين، وحين يهاجم العدو كالرياح الشديدة التي تعصف بالغصن سهل الانكسار، إن غبار المعركة الذي آثاره جيش سيف الدولة تخافه النجوم.

**ويبين** لنا المتنبي مدى قوة هذا الجيش وإصراره على الفوز في إحدى المعارك الحامية فيقول:

تحول رمـــاح الخط دون سبائه وتُسبى له من كل حـي كرائمه
ويُضْحي غبارُ الخيل أدنى ستوره وآخرها نشر الكِباء[12]الملازمُه[13].

أي أنه منيع بين قومه تحول رماحهم دون أسره، ولكن كرائم الأحياء تسبى برماح جيشه فيؤتى بها لخدمته، ويقول: إن الغبار أدنى ستوره؛ لأنه أول ما يصل إليه وآخرها دخان البخور الذي يغطيه كالستر.

ويقول أيضاً:

في جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان[14]

**إلى** جانب هذه الأبيات نجد المتنبي معاتباً الوحوش على التعرض للإبل المرتحلة لديار سيف الدولة، وكان سيف الدولة قد قتل القتلى وتركها للوحوش في الفلا قائلاً:

أباحكِ أيها الوحش الأعادي فِلـمَ تتعرضيـن لـه الرفـاقـا
ولو تبَّعْتِ ما طرحتْ قنـاه لكفّـكِ عن رذايانا [15]وعاقا
ولو سرنا إليه في طريـق مـن النيران لم نخف احتراقا[16]

يخاطب الشاعر الوحش فيقول لها: إن الممدوح أباحكِ أعداءه بأن قتلهم وجعلهم طعاماً لكِ فلماذا تتعرضين للرفاق السائرين إليه ؟ فهو يشير إلى كثرة إيقاعه بأعدائه وشدة نقمته ممن يناصبه ويخفر ذمته، ولو أكلتِ القتلى لكفاكِ عن مطايانا، ونحن لا نخاف احتراق النار ولو سرنا إليه على جسر منها.

**وفي** قصيدة أخرى يصرح لنا المتنبي أن سيف الدولة يأتي بأمور مستغربة في الحرب؛ لأنها مصحوبة بالويل، فيقول:

وما قبل سيف الدولة أثارَ عاشقٌ ولا طُلبتْ عند الظلام ذحول [17]
ولكنه يأتي بكل غريبة تروق على استغرابها وتهول [18]

**وفي** حلب ألقى المتنبي بين يدي سيف الدولة قصيدته التي مطلعها:

لكل امرئ من دهره ما تعودا وعادة سيف الدولة الطعن في العدى[19]

**مستهلاً** هذه القصيدة بالحكمة، قائلاً: لكل امرئ في حياته شيء له دونها عادة أخرى،وأن من يرد أن يقاتل سيف الدولة، فهو يقاتل نفسه ويلحق بها الضرر.

**والقصائد** التي مدح بها المتنبي سيف الدولة،امتازت بالكثرة، وامتازت بالتنوع وذلك بسبب حياة سيف الدولة المتقلبة، بسبب كثرة خوضه للمعارك ومدح المتنبي لسيف الدولة هو المدح الذي يستحقه الأمير المغوار والمناضل المجاهد في سبيل العروبة والإسلام، فرفع منزلته فوق أولئك الأمراء المتخاذلين أمثال كافور، حتى أن القصائد التي قالها المتنبي في الحروب التي خاضها سيف الدولة أصبحت مرجعاً لمن يريد معرفة وصف الحرب وتسلسل جريانها، والمتنبي لم يكن يقدم المدائح كمعجب بشخص سيف الدولة، بل هي مدائح المحب[20]، ويعلن ذلك في أكثر من قصيدة ويقول في إحداها:

مالي أكتم حباً قد برى جسدي وتدّعي حُبَّ سيفِ الدولة الأمم[21]

**لقد** مدح المتنبي كثيراً من القوم، ولكن شعره في سيف الدولة يختلف تماماً عن ذلك الشعر في قصائده لغيره؛ ذلك لأن شعره في سيف الدولة صادق وعاطفته –أيضاً - صادقة؛ ولأنه يصور لنا واقع اللحظات التي عاشها مع سيف الدولة في ساحة القتال.

**ثانياً - بناء القصيدة:**

**لقد** بني المتنبي قصائده بناء غريباً مزج فيه بين انفعالات البدوي وبين عقلانية الحضري المثقف مزجاً عجيباً، وكانت مقدمات المتنبي مقدمات بدوية حضرية؛ لذا عدت تجديداً في مجال الشعر العربي وذلك لأن المتنبي جعل مقدمات قصائده المدحية تعبيراً عن انفعالاته وحالته النفسية، وكانت أبعاد قصائده هي أبعاد حياته، ووصف لمجرى تفكيره والواقع الذي يعايشه، حيث يبني المتنبي قصائده بناءً ذاتياًمحكماً لم يكن فيها مقلداً لأحد من الشعراء الذين

سبقوه، والمتنبي بنى قصائده معتمداً على ثلاث ركائز هي: العقل الرصين الخيال القوي، العاطفة الجامحة، وتميز بالتغلغل في المعاني والأداء المرسل بالموسيقى الهادئة والصاخبة أحياناً. ولمقدمات المتنبي في مدائحه صلة بالموضوع، ويستلهم مقدمات بعض قصائده الحربية من سيرة سيف الدولة، حيث يستخلص لكل قصيدة مقدمة خاصة بها، بل لحناً مميزاً لها ينسجم مع موضوعها، وملاءمة المتنبي دقيقة ورائعة بين مقدمة القصيدة المدحية وبين موضوعها، وعندما تعرض الملك ناصر للخطر هب أخوه سيف الدولة لنجدته وسار يقود جيشاً فقال المتنبي قصيدته اللامية في مدح سيف الدولة منوهاً بشجاعته:

أعْلى الممالكِ ما يُبنى على الأسل والطعن عند محبيهن كالقُبَلِ
وما تقرّ سيوف في ممالكها حتى تقلقل دهراً قبلُ في القُلل
مثل الأمير بغى أمراً فقرّبه طول الرماح وأيدي الخيل والإبل[22]

**والمقدمة** قصيرة ولكنها متلاحمة مع موضوع القصيدة تلاحماً دقيقاً، فهي مستمدة من الموضوع استمداداً مباشراً، فقد عزم سيف الدولة على الانتصار وجهز جيشاً للوفاء بما عزم عليه.

**والمتنبي** يشهد الحروب ويرى بأم عينه كتائب الجيش المتلاحمة، فيستوحي مقدمة قصيدته من هذا الجو البطولي، ولا يلبث أن يقفز من المقدمة القصيرة إلى المدح، ولكنه قفز تتوثق فيه العلاقة، فالمتنبي لا يمعن في التمني، بل يَعِدُ أمانيه بأفعاله، ويحقق النصر برماحه الطويلة وخيوله القوية، فقد يعلو شأن الممالك بالرماح، أي ما يؤخذ قهراً وغلابا، يعني أنه لا تستقر السيوف في الممالك حتى تنال رؤوس الأعداء أولاً، ولا يبلغ توطيد المُلك إلا بعد أن تقطع رؤوس المقاومين.

**وحين** هم سيف الدولة بنصر أخيه افتتح المتنبي مدحته بالحكمة كي تتلاءم مع ما صمم عليه سيف الدولة، وبعد انتصاره على الروم استوحى مقدمته من انتصار الأمير العظيم مسجلاً النصر في مدحته قائلاً:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم
يكلف سيف الدولة الجيشَ همه وقد عجزتْ عنه الجيوشُ الخضارم [23]

**وهذه** القصيدة قالها المتنبي في مدح سيف الدولة عندما هب لبناء حصن الحدث، فاستوحى المتنبي قصيدته من هذه المعركة، فهي صورة لكل أحداث المعركة وشدائدها، وهي حكمة تلخص موضوع مدحته وشجاعة ممدوحه وبعد سنتين حاول الروم استرجاع القلعة فحاصروها، وما أن سمعوا بقدوم سيف الدولة وجيشه لإنقاذ الحصن حتى ضاقت الدنيا بهم وفروا عائدين من حيث أتوا.

**ويستلهم** المتنبي جو الحشد الهائل والفرسان المدججين بالسلاح، وهذا النصر، فيخرج بهذه الأبيات الثلاثة كمقدمة يصور فيها نفسية سيف الدولة ونفسية أعدائه وفروسيته وبسالته، كأنه يعزف لحن العظمة الذي استوحاه من هذا اليوم العظيم إذ يقول:

الرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني
فإذا هما اجتمعا لنفس حرّة بلغت من العلياء كل مكان
لولا العقول لكان أدنى ضيغم أدنى إلى شرف من الإنسان
ولما تفاضلت النفوس ودبَّرت أيدي الكماة عوالي المُرَّان[24]
لولا سَميُّ سيوفهِ وصفاؤه لمّا سُللن لَكُنَّ كالأجفان[25]

**والمقدمة** مستمدة من موضوع المدح، بل من معركتها، فعندما تقدم الروم إلى إحدى القلاع، تقدم سيف الدولة لردهم، وعندما علموا بتقدمه جبنوا في مواقعهم ولاذوا بالفرار، ولم يكتف البطل بطرده إياهم، بل اندفع خلفهم واقتحم حدودهم وألحق بهم هزيمة فادحة، فلما قفل عائداً سدوا المسالك أمامه حتى تعذر عليه الانصراف، فشق طريقه بين الأشلاء الممزقة.

**وكل** القصائد السابقة تبين لنا قوة سيف الدولة وسرعة استجابته لنداء الواجب، واستماتته في الدفاع عنه حتى يغتصب النصر من أعدائه اغتصاباً ولكن سيف الدولة قد مني بالهزائم إلى جانب انتصاراته، وقد بدأ المتنبي في تصوير هزائم سيف الدولة بلحن جديد يختلف تماماً عن لحن النصر، لكنه

يتناسب مع الظرف الجديد مستلهماً من الهزيمة ألحاناً هادئة، يمتزج فيها الأمل باليأس، وبهموم سيف الدولة وآماله، قائلاً:

غيري بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جَبُنوا أو حدّثوا شَجُعوا
أهل الحفيظة إلاّ أنْ تجرِّبَهم وفي التجارب بعد الغي ما يزع [26]
وما الحياة ونفسي بعد ما علمتْ أن الحياة كما لا تشتهي طبعُ
ليس الجمال لوجه صح مَارِنُهُ أنف العزيز بقطع العزّ يُجتدع
أأطرح المجد عن كتفي وأطلبه وأترك الغيث في غمدي وأنتجع
والمشرفية لا زالت مشرَّفةً دواء كل كريم أو هي الوجع[27]

**فقد** لاحظنا في قوله: ( أأطرح المجد ) و ( وأترك الغيث ) كناية عن السيف لأنهما يدركان به، أي أن ( الرفعة ) و ( سعة العيش ) تدركان بالسيف.

**ومدائح** المتنبي تمتاز بالصور الشعرية التي تدل على قوة خياله، محققاً في مدائحه وحدة أركان القصيدة، فقد اهتم بالصور الحية العميقة المرتبطة بنفسه وعاطفته بغض النظر عن كون هذه الصور جميلة أو قبيحة، ولدى المتنبي تظهر البراعة الحقيقية في فن الزخرفة والصناعة، واستخدام الصور استخداماً يحقق وحدة بناء القصيدة [28].

**ونرى** أننا لو رجعنا إلى القصيدة التي قالها لأبي عبد الله معاذ بن إسماعيل لوجدنا فيها روح الثورة والتمرد بارزاً، ومن هنا انتفت عن المتنبي الدعوى المنحرفة عن الدين، إذ أنه كان يهدف إلى الثورة على السلطان، ونزعة الحرب تشيع في شعره الشامي، إذ نراه يدعو العرب للتخلص من حكم الأعاجم، فيقول:

لأتْركُنَ وجوه الخيل ساهمة [29] والحرب أقوم من ساقٍ على قَدَمِ
والطعن يُحرقها، والزجر يقلقها حتى كأنّ بها ضرباً من اللَّمم
قد كلّمتها العوالي فهي كالحةٌ كأنّما الصّاب[30] مذرور على اللُّجُم [31]

**المتنبي** يرى أن حقه في المجد والمعالي لا يأتي إلا بالرماح والرجال فيقول:

سأطلب حقي بالقنا ومشايخٍ كأنهم من طول ما التثموا مرد [32]

جعل أصحابه مشايخ كناية عن أنهم محنكون مجربون.

**وجملة** القول: إن شعر المتنبي على ما يشوبه من التكلف والتعقيد فهو من أرصف الكلام تعبيراً وأحكمه وصفاً وأكثره طياً للمعاني، حتى لا يكاد يرمي بلفظةٍ إلاّ وفيها إلماع إلى غرض مخصوص وتمثيل لوجه من المعنى[33].

**على** أنه كان صاحب معان مخترعة بديعة ولطائف أبكار أنيقة منها ما لم يسبق إليها؛ ولهذا خفيت معانيه على أكثر من روى شعره من أكابر الفضلاء والأئمة والعلماء حتى الفحول منهم والنجباء[34] مع هذا أنه كان يلبس كل معنى ما يناسبه، ويبرز جماله في الألفاظ والصياغة القوية مع بعض التكلف والتصنع[35].

**والمتنبي** ذاق اليأس كثيراً، وبالرغم من ذلك ظلت نفسه فتية خليقة بكل إكبار[36].

**وقيل** إن المتنبي لما رأى الدائرة حوله هم بالفرار فقال له غلامه أتهرب ؟ وأنت القائل:

**الخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم**[37]

فقاتل المتنبي حتى قتل ( رحمه الله ).

**الخاتمة ونتائج البحث:**

1- إن القصائد الحربية أقوى القصائد التي قصدها المتنبي وأجملها وأصدقها وأدقها في تصوير المعارك التي تدور في ساحة القتال.
2- إن عدد القصائد الحربية كبير بالمقارنة مع غيرها من القصائد التي أنجزها المتنبي.
3- كانت موضوعات المتنبي في قصائده متنوعة.
4- حافظ المتنبي على حسن استهلاله لقصائده الحربية.
5- لقد برع المتنبي في بناء قصائده الحربية،لغة ومعنى.
6- لغة المتنبي معبرة عن جمال أسلوبه.
7- اهتم بالمعاني فجاءت مبتكرة وطريفة ولعب الخيال فيها دوراً مهماً.
8- كان المتنبي يميل إلى بعض التكلف والتصنع والإغراب وتعقيد الألفاظ.

**الهوامش**

1- ديوان المتنبي – بشرح الشيخ ناصيف اليازجي –ج 2 تقديم ياسين الأيوبي- دار ومكتبة الهلال – بيروت –ط- الأخيرة 2000 م - ص 205.
2- نفسه ص 69.
3- نفسه ص 127.
4- دلوك: مكان وراء الفرات، صنجة: نهر قرب ديار مضر وبكر – ينظر شرح اليازجي ج 2 ص 128.
5- ديوان المتنبي / مصدر سابق ج 2 – ص 128.
6- ينظر في عالم المتنبي – عبد العزيز الدسوقي ط 2 – دار الشروق القاهرة – ص 70.
7- الديوان – ج 2 - ص 87 _ 88.
8- ينظر شرح اليازجي – ج 2 – ص 88.
9- الصِّنبر: الريح الباردة، ينظر لسان العرب – لابن منظور –مادة (ص ن ب ر).
10 - الديوان – ج 2 – ص 90.
11 - نفسه – ص 91
12- الكباء: عود البخور – ينظر اللسان مادة ( ك ب و ).
13- الديوان ج 2 ص 5.
14- نفسه - ص 205.
15- الرذايا: المهازيل من النوق، ينظر اللسان مادة ( ر ذ و ).
16- الديوان ج 2 – ص 45.
17- الذحول: الثأر، ينظر اللسان مادة ( ذ ح ل ).
18- الديوان ج 2 – ص 127.
19- نفسه – ص 142.

20- ينظر المديح في بلاط سيف الدولة – محمد شحادة عليان – دار غريب – القاهرة – ص 30.
21- الديوان ج 2 – ص 93.
22- نفسه – ص 26.
23- نفسه – ص 162.
24- عوالي المُرَّان: وهي الرماح الصلبة / ينظر اللسان – مادة ( م ر ن ).
25- الديوان – ج 2 ص 204.
26- يزع: يكف ويردع – ينظر اللسان مادة ( و ز ع ).
27- الديوان ج 2 – ص 68.
28- ينظر مقدمة القصيدة العربية العصر العباسي الأول حسين عطوان – دار الجيل – بيروت – ص 211.
29- ساهمة الوجوه: متغيرة عابسة، ينظر اللسان مادة ( س ه م ).
30- الصاب،بتخفيف الباء: نبات مر، ينظر مختار الصحاح للرازي، مادة ( ص و ب )
31- الديوان ج – 1 – ص 151.
32- نفسه – ص 355.
33- ينظر شرح اليازجي – ج 1 – ص 116.
34- نفسه – ص 64.
35- ينظر التقليد والتجديد في الشعر العباسي – صلاح مصلحي عبد الله – دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية – ص 184.
36- ينظر تاريخ الأدب العربي – عصر الدولة والإمارات – شوقي ضيف.دار المعارف،القاهرة – ط – 3 – ص 342.
37- الديوان ج 2 – ص 96.

**********